Human Sciences Arabic11-n. Side 4/16/12 3:21 PM Page 184

The Genetic structural Approach in Modern Moroccan criticism: Narrative Criticism as a model

Dr. Mohammed Merini

Abstract

This research belongs to the field to " criticism of criticism". It analyses and studies the critical works dealing the novels and stories in the modern Moroccan literature a structuralist formalist view. The research adopts a descriptive - analytic approach dealing with the theoretical and practical sides of criticism. The evaluation of these sides relies on formalist- structuralist methodologies (writings of Goldman and Lokach).This has enabled us to present debailed and connected observations related to the assimilation of the Moroccan critics of the essential terminology of this method. In the end of this research, these observations were condensed in a general summary taking into account the experience of the Moroccan critic with the narrative texts from a formalist-structuralist view.

Human Sciences Arabic11-n. Side 4/16/12 3:21 PM Page 185

المقاربة البنيوية التكوينية في النقد المغربي الحديث : النقد السردي نموذجاً

د. محمد مريني *

الخلاصـــة

يندرج هذا البحث ضمن حقل «نقد النقد»؛ فهو يتناول بالدراسة والتحليل الأعمال النقدية التي اشتغلت على القصة والرواية في الأدب المغربي الحديث، من المنظور البنيوي التكويني. يعتمد البحث قراء ة وصفية تحليلية تنصب على الجوانب النظرية والممارسة النقدية، ويتم تقويم هذه الجوانب استنادا إلى الأصول المنهجية للبنيوية التكوينية في مصادرها المرجعية الأساسية (كتابات لوكاتش وغولدمان)، مما أفسح المجال الواسع؛ لتقديم ملاحظات جزئية متصلة بمدى تمثل الناقد المغربي للمفاهيم الأساسية للمنهج المذكور، وقد تم تكثيف هذه الملاحظات - في آخر البحث- في خلاصة عامة تستوعب تجربة النقد المغربي مع النصوص السردية، من المنظور البنيوي التكويني.

* *باحث وناقد مغربي.*

Human Sciences Arabic11-n. Side 4/16/12 3:21 PM Page 186

يوجهه لقناعاته الخاصة، ومعتقداته الراسخة، من خلال ذلك الوصف الدقيق والصارم للواقع الذي ينتمي إليه[٣]. يلغي هذا التصور الجديد فكرة المطابقة بين مضمون العمل الأدبي والواقع، وهي الفكرة التي كانت تمثل حجر الزاوية في النقد الماركسي التقليدي. وبهذا يكون «جورج لوكاتش» قد فتح المجال أمام تصور جديد حول العلاقة بين الواقع الاجتماعي والعمل الأدبي [٤].

سيقوم «لوسيان غولدمان» -بعد ذلك- بتقديم صياغة جديدة لهذه المفاهيم، في إطار رؤية نقدية جديدة سماها «البنيوية التكوينية» Structuralisme génétique وقد أصدر في هذا الإطار مجموعة من الدراسات أهمها :

- الإله الخفي [٥] .
- راسين [٦] .
- نحو سوسيولوجية الرواية [٧] .
- الإبداع الثقافي في المجتمعات المعاصرة [٨] .
- الماركسية والعلوم الإنسانية [٩] .

وسنحاول- من خلال ما يلي - تقديم المرتكزات النظرية الأساسية التي تقوم عليها هذه النظرية :

- مفهوم رؤية العالم «La vision du monde ». ويعني «غولدمان» بهذه الرؤية مجموع الأفكار والمشاعر والإحساسات التي تجمع بين أعضاء جماعة ما، وتجعلها في تعارض مع الجماعات الأخرى [١٠]. ويشير «غولدمان» إلى أن هذه الرؤية تتكون أصلا في وعي الجماعة الاجتماعية. إذ لا يمكن لهذه الرؤية أن تنتج «إلا عن النشاط المشترك لعدد مهم من الأفراد الموجودين في وضعية متماثلة، أي من الأفراد الذين يشكلون زمرة اجتماعية ذات امتياز والذين عاشوا لوقت طويل وبطريقة مكثفة مجموعة من المشكلات وجدوا في البحث عن حل ذي دلالة لها» [١١].

- مفهوم «الفهم» la Compréhension يتعلق الأمر هنا بالتماسك الباطني

Human Sciences Arabic11-n. Side 4/16/12 3:21 PM Page 187

قبل تناول الموضوع، يبدو من الضروري تقديم إضاءات سريعة حول الأطر المرجعية للبنيوية التكوينية، ومفاهيمها النظرية واصطلاحاتها الأساسية. لن نقف في هذا التقديم عند النظريات المختلفة التي تناولت علاقة الأدب بالواقع، سواء منها القائمة على نظرية المحاكاة (عند الفلاسفة الإغريق)، أو القائمة على مسلمات وضعية (في القرن الثامن عشر والتاسع عشر)، أو التي تبنت مفهوم الانعكاس الآلي (في الدراسات الماركسية التقليدية). بل يمكن القول: إن النظريات المذكورة كانت تشكل في الواقع الإرهاصات الأولية لظهور مدرسة نقدية جديدة لا تتطرف في التقيد بفكرة «الانعكاس» في معانيها الضيقة، ولا ترفضها رفضا مطلقا أيضا. بل تقر بوجود استقلال نسبي للظاهرة الأدبية عن واقعها الاقتصادي والاجتماعي. وهذا ما يشكل بعض ملامح المشروع النقدي الذي وضعه الناقد الفرنسي «لوسيان غولدمان» L.Goldman وقبله «جورج لوكاتش» G.Lukacs ، في إطار نظرية «البنيوية التكوينية» Structuralisme génétique التي فتحت المجال أمام تصور جديد لعلاقة الواقع الاقتصادي/ الاجتماعي بالعمل الأدبي، يتجاوز العلاقة الميكانيكية السائدة في القراءة «السوسيولوجيا المبتذلة» la sociologie vulgaire كما كان يسميها «لوسيان غولدمان».

وقد أشار في أغلب كتاباته إلى الدور المهم الذي قام به «جورج لوكاتش» في وضع الركائز النظرية لهذا المنهج [1]. وذلك من خلال تجاوز الأولويات الاقتصادية والإيديولوجية التي ركزت عليها الماركسية الأرثذوكسية، والانفتاح أكثر على الجوانب الأدبية والجمالية للعمل الأدبي [2]. من هذا المنطلق كان لوكاتش حريصا على إبراز التفاوت الموجود بين الانتماء الطبقي للمبدع، والاختيار الإيديولوجي الذي يتبناه في أعماله الأدبية. وقد نبه على هذا التفاوت خاصة في دراسته لروايتي «الفلاحون» و«الأوهام الضائعة» لـ «بلزاك» : فقد لاحظ أن هذا الروائي كان ينتمي إلى الطبقة الأرستقراطية، لكنه على مستوى الإبداع الأدبي كان يصدر عن مواقف معارضة لهذه الطبقة. لذلك فإن عظمته تكمن -في نظر لوكاتش- في النقد الشديد الذي كان

Human Sciences Arabic11-n. Side 4/16/12 3:21 PM Page 188

الأخرى.

لكن هذا الوعي ليس ثابتا، وإنما هو متحرك ومتطور، شأنه شأن المجموعة التي ينشأ فيها، لذلك تتشكل داخله أبعاد مستقبلية تطورية لها صلة بالتطلعات والأماني التي تتشوف إليها المجموعة، مما يتولد عنه «وعي ممكن» أي تصور لإمكانية تغيير الواقع وتعديله، من خلال الحلول والبدائل الاستشرافية التي تراها الجماعة محققة للتوازن المنشود.

لقد شكلت هذه المعطيات المنهجية المادة الأساسية للنقد الاجتماعي الذي كتب في المغرب من المنظور البنيوي التكويني. ويبدو أنه كان هناك شبه إجماع بين النقاد المغاربة في أواخر سنوات السبعين على تجاوز مفهوم الانعكاس الآلي الذي يجعل من العمل الأدبي مجرد مرآة عاكسة للواقع، بطريقة تبسيطية تلغي الاشتغال النوعي للوسائط الشكلية للعمل الأدبي. ومن المفيد هنا تقديم نص لأحد الأسماء المعروفة بإسهاماتها المتميزة في النقد المغربي الحديث، وهو نص يختزل بصورة مكثفة تجربة النقاد المغاربة مع مقولة « الواقعية »، ويكشف عن التطور الحاصل في التعامل مع هذه المقولة، من طور الانبهار إلى طور المساءلة والنقد. يقول محمد برادة:

«إن السياق الذي واكب النشأة والخطوات الأولى كان سياقا مشدودا إلى «الواقعية» ودلالاتها الحافة الموحية بالقدرة على التقاط الواقع المغربي المتحول و«تجسيده» و «تصويره» وجعل الرواية - من ثم- أداة من أدوات تغيير الوعي وتغيير طريقة التعامل مع الواقع [...] ويكون من الطبيعي في مثل السياق الذي أشرنا إلى بعض عناصره أن ترتدي الواقعية أزياء مختلفة، وأن تلبس معاني ودلالات مختلطة ومسطحة، ابتداء من الوصف الفوتوغرافي إلى التسجيلية التاريخية المرصعة بالأسماء والأحداث. ومن ثم فإن قراءتنا النقدية كانت في الستينات وبداية السبعينات تنطلق من «الواقع» (كما يتصوره كل ناقد) لتقرأ العمل الأدبي ولتسأل صاحبه: أين هو الواقع فيما كتبت؟ [...] وبدأت مرحلة أخرى من خلال مزيد من

Human Sciences Arabic11-n. Side 4/16/12 3:21 PM Page 189

للنص، و يفترض أن نتناول النص حرفيا، كل النص ولا شيء سوى النص، وأن نبحث داخله عن بنية شاملة ذات دلالة. ويجب على المحلل هنا استقصاء البنيات الداخلية للنص، واستخلاص مجموع الأنساق المتبنينة فيه.

- التفسير Explication يتعلق هذا الجانب بالبحث عن الذات الفردية أو الجماعية التي تمتلك البنية الذهنية المنتظمة للإنتاج الأدبي بالنسبة إليها طابعا وظيفيا [١٢]. يؤكد غولدمان هنا ضرورة الاحتياط من إعطاء أهمية كبيرة للنيات الواعية للمبدع؛ على اعتبار أن الوعي لا يفسر دائما سلوك الإنسان. إذ يمكن للكاتب -أحيانا- أن يقدم إنتاجا تمثل بنيته العامة رؤية مخالفة للاقتناع الشخصي الذي كان يؤمن به أثناء كتابة العمل الأدبي [١٣].

ولا ينبغي أن يغيب عن ذهن المحلل أن الفهم يكون دائما محايثا للنص، عكس التفسير الذي يشمل الجوانب الخارجية (التاريخية والاجتماعية والاقتصادية والسيكولوجية.... إلخ). إن تحليل العمل ينبغي أن يتوجه-في مرحلة الفهم- إلى الكشف عن البنية الداخلية للعمل الأدبي، وذلك من أجل استخلاص البنية الدالة المحايثة للإنتاج المدروس. وبعد ذلك يتم الانتقال إلى المرحلة الثانية، مرحلة التفسير، وذلك من خلال التركيز على الجوانب المفسرة لحدوث الظاهرة الأدبية. أي محاولة إدماج البنية المحايثة -بوصفها عنصرا تكوينيا ووظيفيا- في بنية أوسع، تضمها مباشرة، وتساعد على معرفة أصول تكون ذلك الإنتاج.

- الوعي الكائن والوعي الممكن Conscience réelle et Conscience possible : خصص غولدمان لهذا الموضوع مقالة مهمة في كتابه «الماركسية والعلوم الإنسانية» [١٤]. يرى أن ما يجمع بين أفراد المجموعة أو الطبقة الاجتماعية هو إحساسهم المشترك بظرفيتهم الواحدة وبالمشكلات التي تواجههم في الوضعية نفسها، لذلك يتمثل «الوعي الكائن» هنا في مجموع التصورات التي تسيطر على جماعة ما في حياتها ونشاطها الاجتماعي، وفي علاقتها بالجماعات الاجتماعية

Human Sciences Arabic11-n. Side 4/16/12 3:21 PM Page 190

الاجتماعية والتاريخية التي كان المغرب العربي مسرحا لها، وذلك من خلال تحديد البنية الذهنية التي كان الأدباء يصدرون عنها في إنتاجاتهم الروائية.

وفي تقسيمه للمراحل التاريخية لتطور الفن الروائي المغاربي يركز عبد الكبير الخطيبي على المضمون الاجتماعي للروايات المدروسة :

- هيمنت على الرواية في الأربعينات الرؤية الإثنوغرافية التي تهتم بالوصف الدقيق للحياة اليومية، وما يتصل بها من العادات والطبائع.

- طغى في الخمسينات موضوع المثاقفة، حيث أصبحت معضلة التقاء ثقافتين - عربية وغربية- هي المحور المستقطب لاهتمام الروائيين.

- ازدهر في الستينات موضوع «النضال» المستوحي من حرب التحرير الجزائرية[٢١] وهذا التحليل الذي كان يربط بين التطور التاريخي وبين المضامين الروائية كان يستدعي تحليلا اجتماعيا. يقول :

« يتحتم على المشتغلين بالدراسات الأدبية المقارنة أن يفهموا أن العلوم الاجتماعية قادرة على أن تجدد منهجهم اللانسوني، وتمده بحلة قشيبة » [٢٢].

لكن يبدو أن الخطيبي كان واعيا بطبيعة المآزق التي آلت إليها الدراسات النقدية التبسيطية التي كانت تطابق بطريقة ميكانيكية آلية بين الواقع والأدب. لهذا ينتقد بعض المفاهيم والمقولات السائدة في النقد الاجتماعي التقليدي مثل مقولة «الانعكاس» و «الشهادة على الواقع»، مبينا أن العمل الأدبي الأكثر «تحللا من الالتزام» يحتفظ بعلائق جد معقدة مع المجتمع، ولا يمكن للنقد أن يكتفي بمقارنة عمل أدبي مع عصره، أو فرد مع فئة اجتماعية [٢٣] .

وإذا كان النقاد الاجتماعيون التقليديون يؤكدون قيمة إنتاج أدبي ما بما يشتمل عليه من قدرة على «الشهادة على الواقع»، فإن الخطيبي يلفت النظر إلى أن «عنصر الإيهام في الكتابة لا يساعد على تحديد مدى صدق الشهادة، كما أن واقعية العمل الفني ليست متناسبة بالضرورة مع مجتمع أو عصر من العصور؛ ذلك أن التحوير

Human Sciences Arabic11-n. Side 4/16/12 3:21 PM Page 191

التعمق في فهم النص الأدبي ومكوناته، [...] وعبر الترجمة والتفاعل مع ما تفرزه الساحة النقدية العالمية والعربية، استطاع الخطاب النقدي المغربي أن يعيد النظر في كثير من المفاهيم والمصطلحات والتحليلات، وفي طليعتها علاقة الأدب بالواقع، وعلاقة النص بالإيديولوجيا» [١٥].

يمكن القول: إن الأعمال النقدية المغربية التي وظفت البنيوية التكوينية تمثل أهم ما كتب - في نطاق هذا المنهج- في العالم العربي بشكل عام، سواء على مستوى الكم أو الكيف [١٦]. لقد أعجب بعض النقاد المغاربة بهذا المنهج- في العقدين السابع والثامن من القرن العشرين- إلى درجة التنصيص عليه في عناوين دراساتهم . وقد اشتغلت هذه الدراسات على مختلف الأجناس الأدبية : الشعر[١٧]، والنقد [١٨] والسرد[١٩]. وسنحاول - من خلال هذا البحث- دراسة وتحليل الكتابات النقدية التي اشتغلت على السرد أساسا.

١. كتاب «الرواية المغربية» لعبد الكبير الخطيبي[٢٠]: يمكن القول- عن عبد الكبير الخطيبي-: إنه من النقاد الذين استلهموا - منذ وقت مبكر- مبادئ البنيوية التكوينية، لكن دون الالتزام المنهجي بجميع خطواتها ومفاهيمها. ذلك أن الخلاصة السريعة التي يمكن الانتهاء إليها من خلال قراءة كتاب «الرواية المغربية»، هي أن الباحث كان على وعي بالمفاهيم النظرية والإجرائية للبنيوية التكوينية، وكان ينفتح على بعضها على مستوى الممارسة النقدية، لكن دون الحرص على الضبط المفهومي والاصطلاحي لهذه المبادئ، من داخل السياق التنظيري العام للبنيوية التكوينية.

يتناول «عبد الكبير الخطيبي» في الكتاب المذكور الروايات المغاربية التي كتبت بين سنتي (١٩٤٥- ١٩٦٢)، وقد قارب هذه الروايات من المنظور الاجتماعي، على اعتبار أن هذه المقاربة من شأنها أن تسمح بالكشف عن الظروف والتحولات

Human Sciences Arabic11-n. Side 4/16/12 3:21 PM Page 192

الأدبية. وبين تطور الرأسمالية الغربية، إذ يفترض أن الأمر يتعلق بنقل بنية اقتصادية إلى مجال المتخيل بكيفية ملتحمة في لا واعية الكاتب (كذا)، فإن مشكلة الرواية المغربية لا يمكن تفسيرها على هذا النحو؛ لأنه لا بد أن تطرح، في نظرنا، من خلال مصطلحات سياسية ونفسانية اجتماعية. ذلك أن الأديب المغربي الذي اعترضته دوامة الأزمات منذ سنة ١٩٤٥ لم يكن بوسعه الإفلات من الوسواس السياسي الذي يستمد منه معظم الأحيان موضوعاته [٢٧].

يشير الناقد هنا إلى «عدم ملاءمة» بعض آراء غولدمان مع خصوصية الإنتاجات الروائية المغربية التي هيمن عليها «الوسواس السياسي» -على حد تعبيره- منذ ١٩٤٥. لا نريد مناقشة هذا الرأي من خلال الأصول المرجعية للبنيوية التكوينية[٢٨]، لكن الذي يهمنا هنا هو الإشارة إلى التناقض الذي يطبع بعض آرائه ذات الصلة بالبنيوية التكوينية : فقبل هذا التحفظ رأينا كيف أن الناقد يدرج قراءته للرواية المغاربية ضمن التحليل الاجتماعي، لكنه في الوقت نفسه «يتبرأ» من القراءات الاجتماعية «التبسيطية» -كما سماها- القائمة على نظرية الانعكاس أو الشهادة ، على اعتبار أن العمل الأدبي «يحتفظ بعلائق جد معقدة مع المجتمع»، وأن عنصر الإيهام في الكتابة «لا يساعد على تحديد مدى صدق الشهادة»، ليخلص فيما بعد إلى ضرورة «التركيز على العمل الأدبي واستخلاص البنية التي ترسم هيكل الكتابة الأدبية»، ثم «البحث عن الترابط بين العمل الفني وبين المجتمع» مع الأخذ بعين الاعتبار أن مضمون العمل الفني «يكون متخفيا ومستترا، ولا بد من استخلاص التحامه على مستوى المتخيل»، وأن الكتابة الأدبية «تشكل بذاتها مجموعة مواقف» ... إلخ. إذن هناك استبعاد لنصوص البنيوية التكوينية على مستوى ظاهر الخطاب، واستحضار روحها ومفاهيمها على مستوى الممارسة النقدية. ويبقى من المؤكد أن الناقد لا يباشر التحليل بوضوح نظري كاف، هناك حديث عام عن الإمكانات التي أصبحت تتيحها المناهج الحديثة، في مثل قوله:

Human Sciences Arabic11-n. Side 4/16/12 3:21 PM Page 193

الفني لوقائع اجتماعية إلى تحليل داخلي، ليس خاضعا لمنهج محدد، وليس تام الشفافية» [٢٤].

وكأننا بالخطيبي هنا يستلهم ضمنيا مقولة «التماثل البنائي» Homologie structurelle كما جاءت في أدبيات البنيوية التكوينية : إن الأدب من هذا المنظور لا يمكن له أن يعكس الواقع، كما لا يمكن له أن يكون شاهدا عليه. بل يمكن له أن يماثل بنية أحد التصورات الموجودة في الواقع الاجتماعي الذي ينتمي إليه المبدع [٢٥].

لقد أصبحت الكتابة أكثر من أي وقت مضى هي العنصر المجهول الذي يتطلب الكشف والتحليل، في نظر عبد الكبير الخطيبي، لذلك فالمطلوب التركيز على العمل الأدبي واستخلاص البنية التي ترسم هيكل الكتابة الأدبية [٢٦] . ينبغي- في نظره- أن ننطلق من الفكرة التي ترى أن الكتابة وطرائقها تشكل بذاتها مجموعة مواقف. وانطلاقا من هذا المفهوم يصبح ممكنا- في نظره- البحث عن الترابط بين العمل الفني والمجتمع.

نجد أنفسنا -مرة أخرى- أمام مفاهيم البنيوية التكوينية دون اصطلاحاتها التقنية: ف «التركيز على العمل الأدبي واستخلاص البنية» -كما أشار إلى ذلك الخطيبي- يذكرنا بمفهوم «البنية الدالة»، واعتبار الكتابة الأدبية «مجموعة مواقف» يحيل إلى «الرؤية للعالم»، وفكرة الترابط بين العمل الفني والمجتمع قريبة من مفهوم «التماثل» ... إلخ.

نتساءل الآن : إلى أي حد يستجيب هذا العمل للتحليل البنيوي التكويني في خطواته الإجرائية المتكاملة؟

يصعب القول: إن الجهاز المفاهيمي النظري لهذا المنهج كان حاضرا بأكمله في هذه الدراسة، خاصة أن الخطيبي نفسه يبدو في بعض مراحل بحثه متحفظا من بعض آراء «لوسيان غولدمان». يقول:

« وإذا كان لوسيان غولدمان يثبت تشابها قويا بين البنية الداخلية للأعمال

Human Sciences Arabic11-n. Side 4/16/12 3:21 PM Page 194

٢. النموذج الثاني الذي ندرجه ضمن الدراسات النقدية السردية التي استلهمت المنهج البنيوي التكويني هو كتاب «الرواية والإيديولوجيا في المغرب العربي» لـ «سعيد علوش» [٣٤] وهو يشترك مع الكتاب الأول في الإطار الجغرافي للمتن الروائي الذي يشتغل عليه، لكنه يختلف عنه في الفترة الزمنية التي يغطيها هذا المتن : (١٩٦٠-١٩٧٥). كما يختلف عنه أيضا من حيث اهتمامه بالروايات المكتوبة باللغة العربية.

وقد أعلن الدكتور سعيد علوش في مقدمة الكتاب عن تبنيه للبنيوية التكوينية بقوله:

«أما بالنسبة لمنهجنا فقد وقع اختيارنا على البنيوية التكوينية كمنهج يلعب لوكاتش وغولدمان دورا مهماً فيه» [٣٥].

وقد برر هذا الاختيار بكون البنيوية التكوينية تسمح «بالقيام بنوع من المقابلة الموجودة بين البنيات الفوقية والبنيات السفلية، بين اللحظة التاريخية واللحظة الروائية، وأخيرا بين الحديث الروائي والإيديولوجيات السائدة» [٣٦].

تفصح هذه الفقرة الوحيدة التي خصصها للتقديم النظري للمنهج البنيوي التكويني عن وجود خلل في التصور المنهجي للناقد: ما نفهمه من هذه الفقرة هو أن الناقد «سيقابل» -من خلال الممارسة النقدية- بين الرواية والمجتمع. ولا شك في أن التعبير بصيغة «المقابلة» هنا تنقض البناء النظري الذي شيده «لوكاتش» و«غولدمان» من القواعد! ذلك أن النقلة المنهجية النوعية التي جاءت بها البنيوية التكوينية تتمثل في تجاوز السوسيولوجيا التقليدية التي كانت تقابل بطريقة آلية بين الأعمال الأدبية وبين الواقع الاجتماعي. وذلك من خلال تقديم تصور جديد، يتجاوز مفهوم «المقابلة» أو «الانعكاس»، ويتمثل في مفهوم «التماثل البنياني» Homologie structurelle ؛ بمعنى أن البنيات الجمالية للعمل الأدبي مناظرة أو مماثلة للبنيات الذهنية لدى الجماعة الاجتماعية [٣٧].

قسم الناقد كتابه -بعد التقديم- قسمين: يتضمن القسم الأول منه معطيات

Human Sciences Arabic11-n. Side 4/16/12 3:21 PM Page 195

«لقد أصبح النقد الحديث متوفرا على عناصر دقيقة نسبيا تمكن إلى حدما، من تحديد قيمة العمل الأدبي. وسواء اعتمدنا على المنهج الفينومولوجي، أو على التقنيات البنيوية، أو على النظرية الماركسية، فإنه لم يعد ممكنا الاكتفاء بدراسة المضمون» [٢٩] . أو قوله :

«بالإضافة إلى تحليل المضمون بالطريقة الاتباعية، فإن النقد يتوفر الآن على عدة طرائق جد دقيقة (درجات المواقف، المنهج اللغوي البنيوي، نظرية اللعب، نظرية الاستخبار، السبرنطيقا...»[٣٠].

وإذا استثنينا هذه الإشارات العامة، من النادر جدا أن نجد الباحث يحيل إلى مصدر منهجي محدد. ويبدو أن غياب الوضوح النظري كان يريح الناقد، إذ يجعله يتواصل مع خيارات منهجية مختلفة، لكن مع مركزية التحليل الاجتماعي.

وقد أشار إلى هذا التنوع المنهجي مترجم الكتاب ، محمد برادة، فذكر أن الخطيبي قد استعان -على الأقل- بمنهجين نقديين. يقول :

«على أن المؤلف لم يلتزم بمنهج واحد في مجموع فصول الكتاب؛ لأن طريقة التناول تختلف من فصل إلى آخر، وتتراوح بين الانطلاق من العمل الروائي، والانطلاق من الظروف المجتمعية، وهذا ما يجعلني أقول بأن الخطيبي استعان،على الأقل، بمنهجين اثنين من مناهج النقد الحديث : المنهج الموضوعي (thématique) كما طبقه «رولان بارت» في مرحلته الأولى، والمنهج البنيوي التكويني : (Structuralisme génétique) كما حدده لوسيان غولدمان» [٣١].

وأما المتن الذي اشتغل عليه الخطيبي، فهو يغطي الفترة بين ١٩٤٥-١٩٦٢. يتكون هذا المتن في عمومه من روايات مكتوبة باللغة الفرنسية، أما الروايات المغاربية المكتوبة بالعربية فهي قليلة [٣٢]. وقد أشار محمد برادة -مترجم الكتاب- إلى «أن الرواية المغربية المكتوبة بالعربية لا تأخذ في الواقع مكانها ضمن هذه الدراسة القيمة» [٣٣].

Human Sciences Arabic11-n. Side 4/16/12 3:21 PM Page 196

- نظام التعصير.
- الجمالية الروائية.

ترتبط البنية الأولى بـ «روائي الشكل التاريخي»، الذين لم يستطيعوا تجاوز العلاقة المباشرة بين الإبداع الفني والاختيار الإيديولوجي : «وتحتل العلاقة المباشرة بين المبدع والإيديولوجية أهمية قصوى؛ لأنها تحدد الاختيار الإيديولوجي لروائيي المغرب العربي في مواجهة الشكل التاريخي» (٤١) .

في حين يقوم «نظام التعصير» على استدعاء الذكريات الماضية، ومقابلتها بالأحداث الجارية بطريقة ساذجة، وهي سذاجة «تنحت التماثيل بدون أشكال، مسيئة للنحت والمنحوت» (٤٢).

أما «الجمالية الروائية» فتتمثل في كون الخطاب الروائي المغاربي أسير الرؤية الإيديولوجية السائدة، التي يقوم فيها السياسي بدور المكيف. يساير الروائي المغاربي « هذا الوعي ولا يخالفه لا لكونه خاضعا لرقابة، ولكن لقصور في الرؤية والوعي التاريخي» (٤٣).

وأما الوعي الممكن فيربطه علوش بـ «الحديث السخري»، الذي لا تفصله عن الماضي والمستقبل أية قطيعة، «وهو بهذا يعانق فلسفة التاريخ كمغامرة إنسانية ناضجة، لا تسقط في لعبة الماضوية ولكنها تنزع باستمرار نحو آفاق مستقبلية» (٤٤).

والملاحظة الأساسية التي يمكن تقديمها هنا هي أن الأستاذ «علوش» لا ينطلق من التعريف الاصطلاحي للوعي كما تقدمه المصادر المنهجية للبنيوية التكوينية. ومن المعلوم أن «لوسيان غولدمان» تحدث عن هذا الجانب في مواضع عدة من كتاباته، بل أفرد له مقالة خاصة في كتابه: الماركسية والعلوم الإنسانية»، وهي تحت عنوان «الوعي الكائن والوعي الممكن، الوعي الصحيح والوعي الزائف» (٤٥).

ومع إقرار غولدمان بصعوبة تدقيق معنى الوعي فإنه، مع ذلك، يخصصه باعتباره «مظهرا معينا لكل سلوك بشري يستتبع تقسيم العمل» (٤٦).

Human Sciences Arabic11-n. Side 4/16/12 3:21 PM Page 197

«بيوغرافية وأنطولوجية». أما القسم الثاني فيتكون من فصلين : الفصل الأول من هذا القسم يتحدث فيه عما سماه «الحديث الروائي والإيديولوجية». وفيه يتم تصنيف الرواية المغاربية إلى ثلاثة أصناف :

- الرواية الاستعمارية.
- رواية التعبير الفرنسي.
- الرواية ذات التعبير العربي.

ويبدو أن هذا الفصل غير مستوعب ضمن الإطار المنهجي الذي أعلن الناقد عن تبنيه في مقدمة الكتاب. بل إن أول عبارة تصدمنا في بداية هذا الفصل تبدو على تناقض واضح مع المرتكزات النظرية لهذا المنهج. يقول :

«من البديهي أن يعكس الحديث الروائي في المغرب العربي البنيات الاجتماعية»[٣٨].

وأما الفصل الثاني ، فقد كان تحت عنوان : «الظاهرة التخيلية والتاريخية في الرواية بالمغرب العربي»، ويمثل هذا الفصل محور الممارسة النقدية للناقد. وفيه يتناول بالدرس والتحليل النصوص الروائية التي يتشكل منها متن الدراسة، منطلقا -في ذلك- من مفهوم الوعي، الذي يعتبر من الركائز الأساسية للبنيوية التكوينية. وطبقا لهذا المفهوم حدد الناقد مستويات الوعي كما تمثلها الإنتاج الروائي المغاربي في : الوعي الواقع، الوعي الخاطئ والوعي الممكن.

يتمثل الوعي الواقع في صورة المستعمر التي تقترن «بفكرة التوسع والاستغلال وبالمهمة التحضيرية للشعوب، وكذا بالمفهوم الذي يحمله عن العالم» [٣٩].

أما صورة المستعمر فتقترن في الأذهان -في نظر علوش- بالسلفية الدينية والإصلاح وتثبيت الهوية الوطنية والإصلاح [٤٠].

أما الوعي الخاطئ فقد عالجه الناقد من خلال ثلاث بنيات :

- الرؤية.

Human Sciences Arabic11-n. Side 4/16/12 3:21 PM Page 198

الصورة الثانية فلها علاقة بالبدائل والحلول التي تطرح لتجاوز الوضع القائم، وهي بذلك تندرج ضمن «الوعي الممكن».

- إن مستويات الوعي التي تحدث عنها علوش لم يتم استخلاصها اعتمادا على تحليل داخلي للنصوص الروائية، كما تقتضي ذلك الإجراءات المنهجية للبنيوية التكوينية، وإنما قدمت كفرضيات نظرية حاول الناقد تأكيدها- بعد ذلك- اعتمادا على نصوص مجتزئة- في الغالب- من السياق الروائي الذي وردت فيه، مما يجعل من الممارسة النقدية نوعا من «تحصيل الحاصل»، وكأن الناقد كان معنيا بتقرير رؤى ومواقف محددة سلفا!

- من الواضح أن الناقد لا يوظف جميع مقولات البنيوية التكوينية، بل يقتصر على مفهوم وحيد هو الوعي (الواقع-الممكن-الخاطئ). مما سيؤدي إلى تغييب مفاهيم أساسية في البنيوية التكوينية من قبيل : الرؤية للعالم - الفهم - التفسير- البنية الدالة. سيكون لهذا الانتقاء أثر سلبي سواء على مستوى التصور العام للمنهج، أو على مستوى طريقة تشغيل المفهوم المذكور- أي الوعي- في الدراسة.

وإذا كان الناقد قد قال في تعليقه على بعض الدراسات النقدية المغربية : إن «البنيوية التكوينية لا تمارس على الأعمال الروائية المغربية إلا على مستوى تجريبي أو بطريقة انتقائية» [٤٨]، فإن عمله هذا لم يسلم من التجريبية والانتقائية.

٣. يعتبر محمد برادة من النقاد المغاربة الذين أبدوا حماسا كبيرا لتوظيف المنهج البنيوي التكويني. وقبل استعراض بعض إسهاماته في مجال تحليل النصوص السردية - وهو الموضوع الذي يعنينا هنا- يمكن الإشارة إلى دراسته الأكاديمية : «محمد مندور وتنظير النقد العربي»، التي يذكر في مقدمتها أن «الصدور عن منهج تاريخي جدلي مرتبط بالقوى الاجتماعية وصراعاتها وانعكاساتها الأدبية والفنية من شأنه أن يسهم في تخليص دراستنا من هالات التقديس والتبرير القائم على

Human Sciences Arabic11-n. Side 4/16/12 3:21 PM Page 199

من هنا يرى غولدمان أن كل واقعة اجتماعية هي بدرجة ما واقعة وعي. وأن كل وعي هو قبل كل شيء تمثل -بشكل من الأشكال- للواقع. لذا لا يمكن تحديد «الوعي» إلا بدراسته في نطاق معطيات اجتماعية كافية لتوضيح دلالاته.

ومن ثم فلكل مجموعة أو طبقة اجتماعية إحساس مشترك بالظرفية الاجتماعية التي تعيش فيها، والمشكلات التي تواجهها في إطار هذه الظرفية، مما يشكل لدى الطبقة أو المجموعة «وعيا كائنا أو قائما». كما لها أيضا تصورات وحلول استشرافية، لما ينبغي أن تكون عليه الأمور قصد تحقيق نوع من التلاؤم والمصالحة مع هذا الواقع القائم المرفوض. وهذا ما يسميه غولدمان بـ «الوعي الممكن أو المحتمل». ولا شك في أن غياب مثل هذا التأطير النظري لمفهوم الوعي سيوقع الناقد في أخطاء نعرض لها بالطريقة الآتية :

- مفهوم الوعي كما يقدمه الناقد هنا أقرب إلى رؤية فردية. فالوعي الخاطئ، مثلا يستخلصه من «شهادة» أحد الروائيين الذين درسهم، وهو محمد المختار جنات[٤٧]. مما يجعل هذه الرؤية فردية ومباشرة. ولم يميز الناقد بين المجموعات أو الطبقات الاجتماعية التي تبلور مستويات مختلفة من الوعي. هذا مع العلم أن غولدمان يركز على الطابع الجماعي الاجتماعي لمفهوم الوعي. ولا شك في أن هذه المسألة مرتبطة بمفهوم الذات الفاعلة أو المبدع الحقيقي، وهو عند غولدمان الجماعة التي ينتمي إليها المبدع، أما عمل المبدع فيتجلى في الصياغة الجمالية لهذا الوعي.

- يبدو أن هناك خلطا في مستويات الوعي كما قدمها سعيد علوش، فالوعي الواقع -مثلا- يتشكل عنده من صورة المستعمر المقترنة في الأذهان بالتوسع والاستغلال والشعور بالظلم، و من صورة المستعمر المقترنة بخطاب السلفية الدينية وحركة المقاومة. ولا شك في أن هذا التصور فيه خلط بين مستويين من الوعي : فالصورة الأولى مرتبطة بواقع المعاناة، لذلك فهي تندرج فعلا ضمن «الوعي الواقع». أما

Human Sciences Arabic11-n. Side 4/16/12 3:21 PM Page 200

عزله عن المنهج النقدي الذي بلوره. لذلك سيربط هذه الأداة الإجرائية بمفهوم آخر بلورته أدبيات البنيوية التكوينية، هو مفهوم الوعي؛ ذلك أن استخلاص الرؤية للعالم في عمل روائي يتم - في نظره- بالتوصل إلى معرفة مدى تعبيره عن الوعي الممكن للفئة أو الطبقة التي استمد منها هذا العمل مادته الخام.

وهذا يعني أن على الناقد النفاذ - عبر البنيات الخيالية للعمل الأدبي- إلى بنية ذهنية ضمنية تستوعب وعيا ممكنا يتجاوز الوعي الكائن للفئة الاجتماعية التي يستمد منها الروائي رؤيته . لكن، يبقى هذا النوع من التحليل مرتبطا بمدى قدرة الرواية على الانفلات من الحاضر والوعي القائم في الواقع للتعبير عن وعي ممكن. وهذا رهين بقدرتها على تنويع الأشكال؛ للنفاذ إلى أعماق واقع المجتمعات العربية من زاوية أساسية، هي الكشف عن الممكن المغيب وراء الوعي القائم.

وقد اعتمد «برادة» في تكوين تصوره النظري على بعض المصادر المنهجية للبنيوية التكوينية، خاصة كتاب «الإله الخفي» لـ «لوسيان غولدمان»، و«قراءة الرواية» لـ «جاك لينهارت».

وبالإضافة إلى هذا الجهاز المفاهيمي المرتبط بالبنيوية التكوينية يشير الناقد إلى إمكانية الانفتاح على الإنجازات النظرية لـ «شاعرية الخطاب الروائي» كما بلورها ميخائيل باختين على الخصوص. لكنه يصرح -مع ذلك- أن المضمون يشكل محور الممارسة النقدية، لأنه يعتقد بوجود «دلالة اجتماعية-إيديولوجية في كل إنتاج أدبي مهما كانت خصوصيته الشكلية والمضمونية» (٥٨).

هذه صورة جد مختصرة عن الجوانب النظرية في الدراسة، فماذا عن الممارسة النقدية؟

يشتغل الناقد على ثلاث روايات هي على التوالي : «ثرثرة فوق النيل» لنجيب محفوظ - «الزمن الموحش» لحيدر حيدر - «نجمة أغسطس» لصنع الله إبراهيم.

يقوم الناقد باستخلاص البنية الدالة في الرواية الأولى اعتمادا على عناصرها

Human Sciences Arabic11-n. Side 4/16/12 3:21 PM Page 201

أحكام مسبقة» [٤٩].

إن ميزة المنهج البنيوي التكويني- في نظره- «تتمثل فضلا عن مرونته المفهومية في الأهمية القصوى التي يعطيها للتاريخ بمفهومه الواسع والمعقد» [٥٠].

وسبق لمحمد برادة أن أشار إلى هذا الاختيار المنهجي في مقالات ودراسات متعددة، منها مقال كتبه في وقت متقدم (١٩٦٩)، تحت عنوان : «الأسس النظرية للرواية المغربية المكتوبة بالعربية» [٥١]. وقد أشار في مقدمة المقال إلى كونه يتبنى التحليلات النقدية «التي تربط البني القصصية بالبنيات المجتمعية، وتجلي التأثيرات الاقتصادية الكامنة وراء الإبداع الفني» [٥٢]. وقد أحال هذه الفكرة في الهامش إلى كتاب «نظرية الرواية» لـ «جورج لوكاتش» و «من أجل سوسيولوجيا الرواية» لـ «لوسيان غولدمان» [٥٣].

كما يستوحي بعض الجوانب المنهجية للبنيوية التكوينية في مقال له تحت عنوان: «تشكيل وتشخيص الواقع - التاريخ في الريح الشتوية» [٥٤]. فبعد تحليله للمادة الحكائية والبنيات السردية، يقوم الناقد باستخلاص «الرؤية للعالم»، التي يقول عنها: إنها «ثنائية المصدر، أي إنها منسوجة من الخيال ومستمدة من الأحداث التاريخية، متسلسلة عبر عالم جزئي، ومتقاطعة مع عالم موسع. من ثم تكون الرؤية للعالم هي حصيلة هذين المحورين؛ اعتمادا على قواسمهما المشتركة» [٥٥].

هناك دراسة نقدية أخرى مهمة للناقد محمد برادة يعتمد فيها على بعض المرتكزات المنهجية للبنيوية التكوينية. الدراسة تحت عنوان : «الرؤية للعالم في ثلاثة نماذج روائية» [٥٦]. ولعل أهميتها تكمن في وضوح الجانب النظري؛ حيث خصص جزءاً من المقالة لتوضيح الأداة الإجرائية التي سيشتغل عليها [٥٧]، المتمثلة أساسا في «الرؤية للعالم».

وتكمن أهمية هذه الأداة الإجرائية في كونها تيسر للناقد إمكانية الارتقاء بالتحليل من الإطار الفردي إلى الجماعي. إن توظيف هذا المفهوم بالذات لا يعني عند الناقد

Human Sciences Arabic11-n. Side 4/16/12 3:21 PM Page 202

المقصلة»[٦٢].

أما رواية «نجمة أغسطس» لصنع الله إبراهيم، فتحقق - هي الأخرى- تعددية في العناصر التركيبية، من خلال بنياتها المختلفة : مذكرات ميكل أنجلو، و ذكريات السارد في السجن، و الحوار باعتباره عنصرا تركيبيا يحقق تعددية اللغات، والسارد/ البطل العاجز عن الفعل، و الكتابة الشعرية المتراكبة على السرد الوصفي... تصلح هذه العناصر -في نظر الناقد- أن تكون مدخلا لتحديد الرؤية للعالم في الرواية : «فالرؤية للعالم إلى جانب نقدها للسلطة ونتائجها القمعية، ونقد الحرمان الجنسي، والتفكير الديني الغيبي تلامس إشكالية الكتابة الروائية المطروحة في مجال النقد والممارسة» [٦٣].

لقد كان الناقد واعيا منذ البداية بمحدودية النتائج التي يمكن الوصول إليها من خلال اجتزاء أداة من الأدوات الإجرائية للبنيوية التكوينية وتوظيفها خارج الجهاز المفاهيمي العام للمنهج. لكنه علل ذلك بكونه لا يتوفر «على الوقت الكافي لإنجاز التحليل في مجموع عناصره» [٤٦] (!!) ولنا أن نتساءل هنا : إلى أي حد يمكن لـ «الوقت غير الكافي» أن يشكل عاملا من العوامل المؤثرة في الاختيارات المنهجية للناقد؟[٦٥]!.

سيحاول الناقد تدارك هذا النقص من خلال ما قدمه في آخر الدراسة تحت عنوان «مقارنة وفرضيات»، وذلك عبر الإحالة إلى «المرجع» الذي تستمد منه الروايات خطابها، وهو في نظره مرجع متقارب وذو إشكالية مشتركة، تتمثل في «بناء مجتمع عربي متقدم، تسوده العدالة والحرية وينتفي فيه القهر والكبت والاضطهاد»[٦٦].

لكن، مع ذلك تبقى الخلاصات التي انتهى إليها في هذا السياق ذات طبيعة عامة، لا تستوعب المقولات الإجرائية للبنيوية التكوينية.

إذا كانت النماذج النقدية التي وقفنا عندها حتى الآن تستوحي البنيوية التكوينية،

Human Sciences Arabic11-n. Side 4/16/12 3:21 PM Page 203

التركيبية المتمثلة في: العوامة، و حجرة الموظف أنيس زكي، و الشخصيات وحواراتها. ثم يحدد -بعد ذلك- «الرؤية للعالم» في الرواية، من خلال إعادة تركيب العناصر المذكورة. يصف هذه الرؤية بكونها «رؤية تساؤلية ثنائية تحاول القبض على سر انطفاء ذلك «البانوس» (كذا) الملهب لحماس الإنسان، المغري بوهم السعادة والتغيير والتواصل مع الآخرين» [٥٩].

وأما البنيات الجزئية لرواية «الزمن الموحش» لحيدر حيدر فتتمثل في : السارد (المتكلم)، والفضاء (دمشق)، والشخصيات الأساسية المتمثلة في «مني» رمز الثورة والحب والتواصل، و«أمينة» نموذج المرأة المقهورة، و «مسرور» نموذج الفلسطيني المناضل. وتبقى اللغة عنصرا محوريا في لحم الشخصيات والربط بينها وبين الفضاء والزمن اللامحدودين.

في محاولته الإمساك بالبنيات الجزئية وبالعناصر التركيبية للزمن الموحش، يبدو السارد/المتكلم، ودمشق/ الفضاء «شخصيتين مؤشرتين على كون يمتد بلا حدود ومنتصب بلا أعمدة، والخطاب ظل يتسربل بغلائل شعرية تنمو صوب التعبير عن (الجوهرية) بلا وسائط أو بنيان يحد انطلاق العشق والحقد والتمرد الصادرة عن السارد المتكلم» [٦٠].

ويبين الناقد كيف أن الشخصيات التي تعمر الزمن الموحش سرعان ما «تتخامد» وراء الكلمات الجوهرية؛ ليسود سياق شعري يسم الرواية ببناء معماري واضح. إن بنية الرواية «بنية سائبة»؛ لأنها لا تريد أن ترتكز على عناصر تكوينية تصبح ملزمة في تحديد العلائق والصراعات....؛ لأنها تريد أن تكون رواية شعرية، رواية كلية تطرح القضايا والهموم والتجارب» [٦١].

ومن هذا المنظور، لا تكون الرؤية للعالم في «الزمن الموحش» - في نظر الناقد- جزءاً من إشكالية ملموسة يحيلنا إليها نص الرواية وإنما هي تجريد كلي لمشكلات تعوق العرب عن الخروج من الزمن الميت الأعمى «زمن الكلاب» و «زمن

Human Sciences Arabic11-n. Side 4/16/12 3:21 PM Page 204

تكون مطابقة تمام المطابقة للواقع نفسه» [٧٠].

إن موضوع الدراسة -حسب ما تقدم- هو البحث عن رؤية الواقع الاجتماعي في الرواية المغربية. ومعنى ذلك أن الهدف المتوخى هو معرفة كيفية وعي الأدباء بالحقيقة التاريخية والاجتماعية، وقد وظف الناقد مصطلح «رؤية» بوصفها وسيطا بين المبدع والعالم الواقعي الخارجي. فالمبدع لا يتأمل-من خلال العمل الأدبي- الواقع بشكل مباشر، ولكنه يكون عنه رؤية تساهم فيها العناصر الذاتية والعناصر الموضوعية، لذلك فإنها ليست مطابقة تمام المطابقة للواقع الحقيقي.

ولكن يبدو أن مفهوم «رؤية الواقع» هنا يأخذ طابعا ذاتيا فرديا، ولذلك فإن المصطلح الذي يبدو مفيدا في هذا الإطار هو «الرؤية للعالم»، وهو مصطلح مركزي في القاموس التقني البنيوي التكويني. ويعني به «غولدمان» : «مجموع التطلعات والإحساسات والأفكار التي توحد بين أعضاء مجموعة ما(وفي الغالب تكون طبقة اجتماعية) وتجعلهم في تعارض مع المجموعات الأخري» [٧١]. إن هذا المفهوم يبدو أوسع من مفهوم «رؤية الواقع» كما عرضه الناقد في مقدمة الكتاب. فالمفهوم الأول له بعد جماعي اجتماعي، منسجم مع المرتكزات الفلسفية للبنيوية التكوينية. أما المفهوم الثاني فهو أقرب إلى المقاربات النقدية النفسية التي تنظر إلى الإبداع باعتباره فعالية فردية [٧٢] .

لا يترك عنوان الكتاب أي مجال للشك في طبيعه الخيار المنهجي الذي يتبناه الناقد، وذلك من خلال التنصيص فيه على مصطلح البنيوية التكوينية. وفي تبريره لاختيار هذا المنهج يركز الناقد على عاملين، يتمثل أولهما في الطابع العلمي للمنهج. يقول :

«ولا نعتبر اختيار هذا المنهج بالذات مجرد رغبة في التجديد، ولكن نراه يرضي النزوع نحو دراسة للأدب تقارب في وسائلها المستخدمة جدية البحث العلمي الذي يمارس في العلوم التطبيقية، ولا نستطيع القول هنا بأنَّ هذا المنهج قد وصل بالدراسة

Human Sciences Arabic11-n. Side 4/16/12 3:21 PM Page 205

فإن الممارسة النقدية لمحمد برادة ستنفتح -بعد ذلك- على مصدر منهجي آخر هو «علم اجتماع النص» (كتابات باختين تحديدا)[٦٧]. لكن يبقى هذا النوع من النقد خارج حدود الخطاب الذي نتناوله هنا.

٤. نشير أيضا إلى بحث الدكتور حميد لحمداني، الذي نص في عنوانه على أنه «دراسة بنيوية تكوينية» [٦٨]. كما أشاد لحمداني بعمله هذا في كتاب آخر بقوله :

«تجدر الإشارة إلى أننا زعمنا تقديم أغلب مصطلحات البنيوية التكوينية في كتابنا الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي» [٦٩].

إلى أي حد يمكن القول : إن الباحث قد التزم -فعلا- بالخطوات المنهجية للمنهج المذكور؟ ذلك ما سنتناوله من خلال ما يلي :

هناك ميزة أساسية يتسم بها كتاب الدكتور حميد لحمداني، في تناوله للنصوص السردية المغربية، تتمثل في وضوح الجانب النظري. لقد استهل كتابه بمدخل عام طرح من خلاله عناصر الجهاز المفاهيمي النظري الذي سيشتغل عليه، خاصة المبحث الذي قدمه تحت عنوان «الموضوع والمنهج». وسيتم الاعتماد-بشكل خاص- على ما ورد في هذا المبحث.

لتحديد طبيعة الموضوع الذي يتناوله الناقد من خلال الكتاب، يمكن الانطلاق من العنوان نفسه «الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي». فقد أوضح الناقد علاقة العنوان بالموضوع في الفقرة الأولى من مدخل الكتاب بقوله :

«لقد دأب كثير من الدراسات التي تناولت علاقة الفن الروائي بالواقع الاجتماعي على وضع الرؤيات في مقابل المجتمع، ولذلك شرعت في استخراج مظاهر الحياة الاجتماعية من الأعمال الروائية ومقابلتها بالواقع، ولكن العنوان الذي وضعناه لهذه الدراسة يحاول تجاوز تلك النظرة السابقة للفن الروائي في علاقته بالواقع الاجتماعي، ويفترض أن المبدع يمتلك تصورا أو رؤية للواقع ليس من الضروري أن

Human Sciences Arabic11-n. Side 4/16/12 3:21 PM Page 206

«بنظرية الانعكاس». وهي نظرية تقوم على فكرة المقابلة المباشرة بين الواقع ومضمون الرواية.

وقد كان لهذا السياق الثقافي العام تأثيره في طبيعة المادة النظرية التي قدمها الناقد في مقدمة الكتاب؛ ذلك أن القسم الأكبر من هذه المقدمة خصصه لنقد نظرية الانعكاس. وقد حدد لحمداني مظاهر القصور في الدراسات التي تتبنى هذه النظرية في كونها «تعتبر الواقع كلا منسجما ومتماسكا، كما تنظر إلى المبدع على أنه يمتلك القدرة على عكس الواقع، وفق مبدأ المحاكاة الأرسطي، و الأكثر من ذلك أنها حتما ستنطلق من فكرة مفادها أن الفن الأدبي لا يتعدى مجرد عكس الواقع، ومن ثم فإنها تلغي وظيفة الأدب في المجتمع كما تنفي تبعا لذلك أية علاقة جدلية بين الواقع والفكر» (٧٩).

كما يرى الناقد في موضع آخر من التقديم أن هذا الخطاب «يهدف في الغالب إلى الحفاظ على القيم السائدة في الواقع أو هو في حدوده القصوى يهدف إلى تحقيق توازن أقصى للفئات الاجتماعية التي يعبر عنها لكي ترى نفسها في انسجام كامل مع الواقع الكائن. وغالبا ما يكون هذا الأدب مرتبطا شديد الارتباط بمصالح وطموحات هذه الفئة وحدها، دون أن يتخذ مضمونه بعدا إنسانيا يمكن أن تتجاوب معه فئات أخرى من المجتمع» (٨٠).

وإذا كان هذا الجهد النقدي التحليلي لأسس الخطاب الجدلي التقليدي استجابة حقيقية للمرحلة التي كان يمر بها النقد المغربي، في ذلك الوقت، فإنه كان على حساب تقديم المادة النظرية للبنيوية التكوينية. لقد اكتفى الناقد في هذا الجانب بعرض أربعة مبادئ أساسية. وسيتم عرض هذه المبادئ بوصفها تشكل المرتكزات الأساسية لتصوره المنهجي:

- العمل الأدبي ليس مجرد انعكاس بسيط للوعي الجماعي الواقعي، ولكنه يميل دائما إلى بلوغ درجة عالية من الانسجام المعبر عن الطموحات التي ينزع إليها وعي

Human Sciences Arabic11-n. Side 4/16/12 3:21 PM Page 207

الأدبية إلى هذا المستوى العلمي الدقيق (....) ولكن المنهج البنيوي التكويني يعبر عن مستوى متقدم بالنسبة للمناهج السابقة في فهم يقترب من الروح العلمية»[٧٣].

ويتمثل المبرر الثاني في الطابع الشمولي للمنهج البنيوي التكويني، الذي «يستوعب جهود أنماط النقد الأدبي المعاصر بما فيها الاتجاه البنيوي الحديث، ويترك نفسه مفتوحا على إمكانية الاستفادة من الدراسات الجمالية التي تهتم بالبنى الداخلية للأعمال الأدبية» [٧٤] .

لقد كان التحمس للبنيوية التكوينية -كتقليعة أخيرة وحديثة- كبيرا في عالم النقد الأدبي المغربي، لذلك فإن المبررين اللذين أشار إليهما الناقد هنا يعكسان التقدير المبالغ فيه الذي كان يحظى به هذا المنهج عند الناقد. لكن هذا لا يمنع من مناقشة الطابع العلمي والطابع الشمولي-اللذين تحدثا عنهما الناقد- من الزاوية الإبستمولوجية. وسيكون من المناسب الاعتماد هنا على بعض الأقوال للدكتور حميد لحمداني نفسه، في مراحل متأخرة، بعد أن أصبح يتعامل مع مرجعيات نقدية مخالفة قليلا أو كثيرا للمرجعية البنيوية التكوينية [٧٥]:

لقد أشار في كتابه «النقد الروائي والإيديولوجيا» إلى أن «غولدمان» كان لديه نقص كبير في مسألة تحليل البنية الداخلية للعمل الروائي، وفي وضع الأدوات الإجرائية للقيام بهذه المهمة» [٧٦]. وأن «المجهود الكبير الذي بذله غولدمان خاصة، كان موجها في أغلبه إلى توضيح المرتكزات الفلسفية لعلاقة الرواية بالوعي وبالواقع»[٧٧]. وأنه لم يستطع «أن يخصب نظرية الشكل الروائي بوضع أو اقتراح الوسائل والأدوات العملية التي تمكن من القيام بذلك التحليل. فقد بقي معتمدا على حدسه الخاص في كشف بنية النص الدالة» [٧٨].

ولقد كان اعتماد البنيوية التكوينية منهجا لمقاربة الرواية المغربية اختيارا متقدما -نسبيا- بالقياس إلى طبيعة الخطاب النقدي السائد يومذاك الذي كان يستمد مسلماته النظرية من الأدبيات الماركسية الكلاسيكية التي يصطلح عليها -عادة-

Human Sciences Arabic11-n. Side 4/16/12 3:21 PM Page 208

كان لهم الفضل -بشكل أو بآخر- في بلورة عناصر الجهاز المفهومي النظري للبنيوية التكوينية. صحيح هناك إشارة إلى «جورج لوكاتش»، لكن هذه الإشارة جاءت في سياق نقد ما سماه «المنهج الجدلي التاريخي» [٨٥]، ومن ثم فهي لا تضيف جديدا إلى المعطيات النظرية المقدمة سابقا.

يكمن أساس المرتكزات الأربعة للنقد البنيوي التكويني -كما قدمها لحمداني- في اعتبار الإنتاج الإبداعي ليس فقط من صنع مبدعه، ولكنه قبل أن يكون كذلك فإن مضمونه العميق موجود لدى فكر الجماعة التي ينتمي إليها المبدع أو يعبر عنها. وينحصر دور المبدع في إعطاء صورة لهذا الفكر الجماعي، مع صياغته في قالب خيالي يبدو كأنه جديد كل الجدة. ويذكر لحمداني أن «النقد عندما لا يأخذ بعين الاعتبار هذه الجوانب الدقيقة فإنه حتما سيبقى في إطار المقابلة المرآوية بين هذين الجانبين» [٨٦].

كما يعلن في تقديمه لعناصر تصوره المنهجي، أنه سيهتم بتحليل البناء الشكلي وفهم المضمون الاجتماعي والإيديولوجي للعمل الأدبي. لذلك يشير إلى انفتاح هذا التصور المنهجي على الدراسات البنيوية في مقاربة الأعمال الأدبية. وإذا كانت الدراسات البنيوية -في نظره- قد اتخذت في الغرب أبعادا جديدة؛ اعتمادا على فهم يقترب من مستوى التحليل العلمي، واستطاع النقاد -في إطار هذا المنهج- توفير أدوات وتقنيات فعالة في الكشف عن البنى الداخلية للنص الأدبي «فإن الاستفادة من هذه الدراسات والمناهج تصبح أكيدة و ضرورية أثناء القيام بتحليل الروايات التي سنتناولها بالدراسة» [٨٧].

ولكن الملاحظ أن حديث الناقد عن المنهج البنيوي بقي في حدود الإشارات العامة، هذا مع العلم أن أشكال ومستويات التحليل البنيوي تتعدد وتتنوع إلى حد كبير، وقد كان على الناقد أن يحدد بدقة ما الأطروحة البنيوية التي يريد الانفتاح عليها في تصوره المنهجي، وذلك حرصا على الوضوح النظري؟.

Human Sciences Arabic11-n. Side 4/16/12 3:21 PM Page 209

الجماعة التي يتحدث باسمها[٨١].

- إن العلاقة بين الوعي الجماعي وبين الأعمال الإبداعية لا تقوم في شكل تطابق تام في المحتويات والمضامين، ولكنها تتجلى في نوع من الانسجام على مستوى البنيات؛ «لأن الأعمال الإبداعية تبني مضامينها في شكل صياغة مجازية تختلف اختلافا كبيرا عن المضمون الواقعي للوعي الجماعي» [٨٢].

- الإنتاج الأدبي الذي يقابل البنية الفكرية لجماعة ما يمكن أن يكون من إبداع فرد، ليست له علاقة وطيدة مع هذه الجماعة. ومع ذلك فإن الطابع الاجتماعي لهذا الإنتاج الأدبي يكمن -على الخصوص- في أن الفرد ليس في مقدوره تهيىء بنية فكرية منسجمة تقابل ما يعرف بـ«الرؤية للعالم». وأن الفرد يمكنه فقط أن يرفعها إلى درجة عالية من الانسجام، بتحويلها إلى مستوى الإبداع الخيالي[٨٣].

- الوعي الجماعي الذي يتمثل الإبداع يتشكل ضمن السلوك الشامل للأفراد المشاركين في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية[٨٤].

إن المبادئ الأربعة المقدمة من خلال الفقرات السابقة تشكل جوهر البناء النظري الذي قدمه الدكتور لحمداني من خلال المدخل العام للكتاب. لكن مع ذلك تبدو هذه المادة غير كافية لتقديم تصور ناضج عن نظرية البنيوية التكوينية. فالمادة النظرية المقدمة هنا كلها تحيل إلى كتاب «من أجل سوسيولوجية الرواية» لـ «لوسيان غولدمان»؛ وليست هناك إحالة إلى أي مصدر من المصادر المنهجية الأخرى للبنيوية التكوينية. مع أن الكتاب المذكور كتب في زمن متقدم بالقياس إلى الكتب الأخرى، التي قدم -من خلالها- لوسيان غولدمان الصياغة المتكاملة والنهائية لمشروعه الفلسفي والنقدي؛ مثل كتاب «الماركسية والعلوم الإنسانية» (١٩٧٠). (يمكن الإشارة- على الخصوص- إلى فصل تحت عنوان : سوسيولوجية الأدب: الوضع ومشكلات المنهج).

والملاحظ أيضا أنه ليست هناك إشارة إلى إسهامات نقاد سوسيولوجيين آخرين،

Human Sciences Arabic11-n. Side 4/16/12 3:21 PM Page 210

والتفسير.

«بعد التحليل يستهدف الكشف عن البنى الفنية وما تعبر عنه أيضا من بنى مضمونية عميقة دون الرجوع في الغالب إلى أية معطيات خارجة عن النص، إلا إذا كانت بعض جوانب هذا النص تقتضي بشكل ملح هذا الرجوع» (٩٠).

وأعتقد هنا أنه كان من المناسب أن يقف الناقد عند فكرة استلهام التحليل البنيوي التي أشار إليها في مواضع سابقة من التقديم، وذلك لأن فعالية التحليل البنيوي تتأكد من خلال دراسة الجوانب الداخلية للنص. وقد وجهت انتقادات إلى «لوسيان غولدمان» -خاصة من تلميذه بيير زيما- مفادها أن التصور الغولدماني لا يحيل إلى وسائل إجرائية محددة؛ لتحليل النص في مستوياته الشكلية والفنية. يقول:

«إن نقط ضعف البنيوية التكوينية تكمن كلها في عدم قدرتها على تحليل ونقد النص الأدبي على المستوى اللغوي والدلالي والتركيبي والسردي [...] وهكذا فإن المفهوم المركزي لـ «البنية الدالة» يفسح المجال لبعض الأسئلة التي لا تحمل صفة تقنية، مثل : ما هو بالتحديد معنى البنية الدالة؟ هل هناك نظرية للدلالة sémantique تسمح بتعريف هذه البنية الدلالية في نص أدبي أو فلسفي» (٩١).

البعد الثاني-كما قدمه لحمداني- «يستهدف وضع النص ضمن بنية أوسع هي التي تفسر طبيعة الرؤية الاجتماعية التي يتضمنها العمل الإبداعي، ويتم التعرف على هذه البنية الفكرية بما يوجد بينها وبين بنية النص من تناظر» (٩٢).

تعبر هذه البنية الفكرية -في نظر لحمداني- بالضرورة عن إيديولوجية ما موجودة في الواقع، والحديث عن هذه الإيديولوجية يستلزم تحديد الشريحة الاجتماعية التي تقابلها، ودور هذه الشريحة في حركة الصراع الاجتماعي. لذلك يرى لحمداني أن الخطوة الأولى؛ لإنجاز هذا العمل «هي تقديم تصور عام للطبيعة والواقع الاجتماعي المغربي الذي أنتج الروايات المقترحة للدراسة» (٩٣).

Human Sciences Arabic11-n. Side 4/16/12 3:21 PM Page 211

ثم إن الحديث عن «البنيوية» في إطار «البنيوية التكوينية» يحتاج إلى نوع من المواءمة المنهجية كخطوة أولى، وذلك بالنظر إلى اختلاف المنهجين في الأسس الفلسفية التي يقومان عليها. وبالنظر إلى الصعوبات التي تعترض الناقد في هذا الجانب، فإنه يحصر مجال -الاستفادة من المنهج البنيوي- في حدود المفاهيم الأولية الأساسية. يقول :

«إن ما نجده من ملامح التحليل البنيوي في هذه الدراسة إنما هو استلهام لبعض المفاهيم الأساسية الأولى التي يعتمد عليها البنيويون، وهي مفاهيم متصلة بالحقائق التي ظهرت في مجال إدراك طبيعة التعبير اللغوي بشكل عام» (٨٨).

وقد برر الناقد هذا الاستلهام المحدود للتحليل البنيوي بكثرة النصوص الروائية التي يتشكل منها المتن :

«فالتحليل الدقيق للبنية الداخلية في الأعمال الروائية يفترض منهجيا الاقتصار في الدراسة على نص روائي واحد أو نصين على أكثر تقدير، بينما يلزمنا موضوع الدراسة تناول مجموعة لا بأس بها من الروايات رأينا أنها قابلة لأن تكون ميدانا للبحث» (٨٩).

ويمكن مناقشة هذا الرأي من زاوية أن البنيوية التكوينية تتيح للدارس إمكانية الجمع -في دراسة واحدة- بين نصوص عدة، والدليل على ذلك هو ما قام به «غولدمان» نفسه، حين تناول بالدراسة والتحليل الكتابات الفلسفية لـ «باسكال» ومسرحيات «راسين» في كتابه «الإله الخفي». وكذلك دراسته لعدة نصوص روائية في كتابه «الإبداع الثقافي في المجتمعات المعاصرة». يبقى أن هذا التنوع يفرض التعامل مع النصوص -في الخطوة الأولى- بطريقة منفردة، وذلك من أجل الكشف عن «بنياتها الدالة»، ثم الجمع بين النصوص ذات البنيات المتماثلة، وذلك بهدف تحديد العلاقة بينها وبين «البنية الذهنية» التي تمثلها.

يرى الدكتور لحمداني أن دراسته تسير في إطار بعدين أساسين هما : الفهم

Human Sciences Arabic11-n. Side 4/16/12 3:21 PM Page 212

النقدية ستسقط -فعلا- في شرك النظرة الإيديولوجية المباشرة، وستصادر على المطلوب، وستصل إلى النتائج مباشرة!

ويبدو أن الناقد لم يكون تصوره النظري اعتمادا على المصادر المنهجية للبنيوية التكوينية فقط، بل تعامل أيضا مع بعض الدراسات النقدية العربية والمغربية، ويتضح ذلك من خلال المبحث الذي أورده -في المدخل العام- تحت عنوان «مدى استفادتنا من مناهج الدراسات النقدية السابقة في العالم العربي والمغرب خاصة»[٩٧]. وقد قدم فيه صورة سريعة لأهم هذه الكتابات النقدية؛ ليخلص - بعد ذلك- إلى أحكام عامة من جملتها «أن المناهج المطبقة حتى الآن في الدراسات النقدية حول الرواية المغربية ظلت مشدودة في الغالب إلى التفسير الاجتماعي والإيديولوجي بشكل يتم معه التضحية بالجوانب الفنية. أما التطبيقات القريبة من المنهج البنيوي التكويني فإنها كانت محدودة في دراسات قليلة بحيث لم تستوعب جل التجربة الروائية بالمغرب حتى الآن» [٩٨].

وعلى الرغم من هذا التقويم السلبي للخطاب النقدي السائد، نجد أنَّ تأثير هذه الدراسات واضح في الممارسة النقدية للناقد، ويتجلى ذلك في كثرة الاستشهاد ببعضها، وكذا في تسرب بعض القيم النقدية التقليدية (ولعل الخلط الذي لوحظ سابقا بين مرحلتي الفهم والتفسير مثال على ذلك).

٥. لا نريد إنهاء هذا القسم من البحث دون الوقوف بشكل سريع عند ناقد حاول - هو الآخر -استيحاء بعض الأدوات الإجرائية للبنيوية التكوينية. يتعلق الأمر هنا بالناقد المغربي نجيب العوفي، الذي سبق تقديم كتاباته النقدية، ضمن الخطاب الإيديولوجي القائم على نظرية الانعكاس. لكن الملاحظ على الأعمال النقدية الأخيرة لهذا الناقد، أنها أصبحت تنحو منحى الانفتاح على بعض الضوابط المنهجية التي تخفف من غلواء المطابقة الآلية بين الظاهرة الأدبية والواقع. هذا ما

Human Sciences Arabic11-n. Side 4/16/12 3:21 PM Page 213

وسيخصص الناقد-فعلا- قسما من مدخله العام؛ لتقديم مبحث تحت عنوان «خلفية سوسيولوجية» [٩٤]، عمل من خلاله على تقديم صورة عن المجتمع المغربي، من مرحلة ما قبل الحماية إلى نهاية السبعينات، سواء على مستوى الواقع الاجتماعي أو على مستوى الاتجاهات الفكرية والإيديولوجية السائدة.

إن البدء بتقديم تصور عن المجتمع المغربي، قبل التحليل الداخلي للأعمال الروائية (من أجل الكشف عن البنى الدالة)، يتناقض تناقضا تاما مع المرتكزات النظرية والإجرائية للبنيوية التكوينية، بل إن مثل هذا الإجراء المنهجي من شأنه أن يعيد الممارسة النقدية إلى مفهوم الانعكاس؛ أي المقابلة المباشرة بين العمل الأدبي والواقع الاجتماعي، مع العلم أن «غولدمان» قد انتقد هذا المفهوم انتقادا شديدا. ذلك أن أهم ما يميز البنيوية التكوينية من نظرية الانعكاس أو«السوسيولوجيا المبتذلة» كما يسميها «غولدمان»، هو هذا التعامل المرحلي مع الأدب من خلال خطوتي الفهم ثم التفسير. وقد نبه «غولدمان» في أكثر من موضع من كتاباته إلى ضرورة الالتزام بهذا الترتيب التدريجي للمرحلتين، في مثل قوله :

«على الباحث- لكي يفهم العمل الذي هو بصدد دراسته - أن يتقيد في المقام الأول، بالبحث عن البنية التي تكاد تشمل كلية النص» [٩٥].

لكن يبدو أن هذا المفهوم الذي يشكل حجر الزاوية في الصرح النظري الذي شيده غولدمان، لم يكن مفهوما بما فيه الكفاية عند حميد لحمداني. هذا على الرغم من أن الناقد يصرح بأن دراسته لا تقع في «شرك النظرة الإيديولوجية المباشرة التي تصادر على المطلوب، وتصل إلى النتائج مباشرة، ولكنها رؤية تعي على الأقل منهجها وأهدافها، وتحاول أن تتعامل مع الرواية أولا وقبل كل شيء كفن» [٩٦].

ولكن التعامل مع الرواية كفن يقتضي - في الحقيقة - أن يعطي الناقد الأسبقية في التحليل لدراسة البنية الداخلية للعمل الروائي، وذلك حتى يتمكن من وضع التحليل على الطريق الأدبي، وليس فقط على الطريق الاجتماعي، وإلا فإن الممارسة

Human Sciences Arabic11-n. Side 4/16/12 3:21 PM Page 214

المقدمة أي تحديد من هذا النوع، بل ورد في كلام الناقد -بعد ذلك- ما يثبت ذلك الخلط المشار إليه بين الموضوع والمنهج. يقول الناقد :

«واضح من الملاحظات السابقة المتعلقة بواقعية النص الأدبي أن المنهج المهيمن على هذا البحث هو المنهج الواقعي» (١٠٤). أيضا : «ومن ثم يشكل المنهج الواقعي ما يمكن أن نسميه «إطار القراءة» لهذا البحث، وبوصلته الموجهة والهادية» (١٠٥). لذلك يمكن القول مع الأستاذ حميد لحمداني:

«إن أبسط الاحتياطات المفروض اتخاذها في الممارسة النقدية هي أن يميز الناقد بين موضوعه وأدواته في التحليل، وإذا لم يحصل هذا التمييز سيتحول النقد إلى عمل عشوائي لا معنى له على الإطلاق» (١٠٦).

وبعد هذه المناقشة، يمكن تحديد بعض الجوانب التي لها صلة بمفاهيم البنيوية التكوينية. وقد تمت الإشارة سابقا إلى أن الناقد لم يعلن -بشكل مباشر- عن تبنيه للبنيوية التكوينية، لكن المعطيات النظرية التي قدمها في مقدمة الكتاب ذات صلة وطيدة بهذا المنهج. يتضح ذلك خاصة في تبنيه لثنائية «الفهم والتفسير»، التي وضعها «غولدمان» : يشير الناقد -في هذا الإطار- إلى أن منهجه يقوم على فاعليتين؛ تتمثل أولاهما في «تفكيك بنى النصوص وتشريحها والتقصي المجهري أحيانا لأدق جزئياتها وعناصرها»(١٠٧).

أما الفاعلية الثانية فتقوم على «تفكيك البنى الذهنية ذاتها الثاوية في طيات البنى السردية والمنتجة لها» (١٠٨).

يحدد الناقد الإطار المرجعي للفاعليتين في البنيوية التكوينية بقوله :

«يمكن أن نعتبر العملية الأولى (تفكيك البنى السردية) حسب المصطلح الغولدماني «فهما». و (الفهم مسألة تتعلق بالتماسك الباطني للنص، وهو يفترض أن نتناول النص حرفيا كل النص، ولا شيء سوى النص. وأن نبحث داخله عن بنية شاملة ذات دلالة). كما يمكن أن نعتبر العملية الثانية (تفكيك البنى الذهنية)

Human Sciences Arabic11-n. Side 4/16/12 3:21 PM Page 215

يمكن أن يخلص إليه من يقرأ ما ورد في كتابيه : «مقاربة الواقع في القصة القصيرة المغربية» [٩٩] و «ظواهر نصية»[١٠٠].

لا يعلن الناقد في الكتاب الأول عن تبنيه للبنيوية التكوينية بشكل صريح ، بل قد لا يكون من المبالغة القول: إن الناقد لا يباشر موضوعه بوضوح نظري كافٍ. ويبدو أن الذي أدى إلى هذا الغموض المنهجي هو عدم تمييزه بين موضوع الدراسة ومنهجها :

في المستوى الأول نقرأ قوله : «لذا ينزع هذا البحث عن مبدأ أساس، يسري منه مسرى القناعة والمسلمة، وهو «واقعية» النص الأدبي» [١٠١]. يشرح العوفي ما يقصده من مصطلح «الواقعية» بقوله :

«وليست الواقعية سوى حضور الواقع في النص الأدبي على هذه الصورة أو تلك، وحضور النص في الواقع أيضا على هذه الصورة أو تلك» [١٠٢].

ما يمكن فهمه من هذا الكلام -ومن غيره مما ورد في السياق نفسه- أن الناقد سيتعرض لأشكال ومستويات حضور الواقع في القصة المغربية، أي كيف تقارب القصة القصيرة الواقع؟

ولا شك في أن عنوان الدراسة دال بصورة واضحة على هذا الموضوع. ولكن التصريح بواقعية نص ما لا يتضمن بالضرورة تحديد منهج معين في التعامل معه. خاصة و نحن نعرف أن لهذا المصطلح استعمالات متباينة تثير التباسا أثناء الاشتغال عليه؛ فقد أحصى أحد الدارسين خلال بحثه في سجلات «الواقعية» أزيد من خمسة وعشرين استعمالا [١٠٣] : واقعية تحليلية، وواقعية جدلية، وواقعية اشتراكية، وواقعية جديدة...إلى غير ذلك من التركيبات المزجية التي تجعل المصطلح شديد الالتباس.

وكان من المفروض بعد تحديد موضوع الواقعية في القصة القصيرة أن يشير الناقد إلى الأداة التحليلية التي سيعتمدها في تحليل هذا الموضوع. ومع ذلك ليس في

Human Sciences Arabic11-n. Side 4/16/12 3:21 PM Page 216

عدة: البنيوية التكوينية - نظرية الانعكاس المباشر - التحليل البنيوي للسرد. وهو بذلك لا يخرج عن الإطار العام لتعامل الفكر النقدي المغربي مع البنيوية التكوينية، هذا التعامل يمكن تصنيفه إلى ما يلي :

– النموذج القائم على اجتزاء مفهوم واحد من المفاهيم الإجرائية للبنيوية التكوينية وتوظيفه في تحليل النصوص الإبداعية المدروسة (الرؤية للعالم بالنسبة لبرادة - الوعي عند علوش). ويبدو أن مثل هذا الانتقاء الجزئي لمفهوم من المفاهيم -مهما كان أساسيا- وفصله عن أرضية المنهج كجهاز مفاهيمي شامل ومتكامل لا يحقق الفعالية المنهجية المطلوبة. ذلك أن أي منهج يشكل منظومة مترابطة من المبادئ والتصورات التي يكمل بعضها بعضا، مما يستدعي الالتزام المنهجي بجميع خطواته ومفاهيمه الإجرائية.

– النموذج القائم على التوفيق بين البنيوية التكوينية وبين خيارات منهجية أخرى (البنيوية التكوينية والموضوعاتية وسوسيولوجيا الأدب عند الخطيبي- البنيوية التكوينية ونظرية الانعكاس والتحليل البنيوي للسرد عند العوفي ...إلخ) . لا يأخذ هذا النموذج بعين الاعتبار التباين الحاصل على مستوى الأسس الفلسفية للمناهج، ولا الصلة القائمة بين التصور الفلسفي وبين التحليل الإجرائي في منهج من المناهج. ثم إن الانفتاح - من داخل إطار منهجي معين- على أداة إجرائية ما من منهج آخر، يكون في الغالب على حساب الأدوات الأصيلة في المنهج الأول. هذا ما وقع -مثلا- للنقاد الذين زاوجوا بين البنيوية التكوينية والتحليل البنيوي للسرد، اعتقادا منهم أن المنهج الثاني يكمل النقص الحاصل في المنهج الأول على مستوى التحليل الداخلي للنص الإبداعي. والحال أن البنيوية التكوينية قد بلورت هي الأخرى تقنيات للتحليل الداخلي للنص، يعكسها بوضوح مجموع الضوابط المنهجية التي وضعها «غولدمان» فيما يتعلق باستخلاص «البنية الدالة» للنص، و كذا بحثه عما سماه «البنيات الصغري» Micro-structures، التي يؤدي تركيبها إلى صياغة البنية الشاملة[١١٤].

Human Sciences Arabic11-n. Side 4/16/12 3:21 PM Page 217

وحسب المصطلح الغولدماني أيضا تفسيرا. «أما التفسير فليس سوى إدراج هذه البنية من حيث هي عنصر مكون، في بنية شاملة مباشرة، لا يسبرها الباحث مع ذلك بطريقة مفصلة، وإنما فقط بالقدر الضروري لجعل تكوين العمل الذي يدرسه (مفهوما)» [١٠٩].

يتأكد حضور مفاهيم البنيوية التكوينية في كتاب نجيب العوفي أيضا في رفضه لمفهوم الانعكاس الآلي بين الأدب والواقع، وتبنيه لمفهوم «التماثل» يقول :

«كيف يقارب النص الواقع؟! عند هذه النقطة الإشكالية بالضبط، تفقد كلمة الواقعية طمأنينيتها وانسجامها، وتتشطر إلى واقعيات أو إلى أشكال مختلفة من الواقعية يمكن أن نختزلها في آخر المطاف، في نمطين رئيسين من الواقعية، واقعية استنساخية تنسخ الواقع كما هو وتخلو من البصيرة الفكرية الإبداعية. وواقعية مضارعة للواقع (غولدمان)، تعيد خلقه من جديد بفضل بصيرته الفكرية - الإبداعية . واقعية آلية وواقعية دياليكتيكية (لوكاتش)» [١١٠] .

واضح من خلال ما سبق أن نجيب العوفي لم يعلن عن التزامه بجميع الخطوات المنهجية للبنيوية التكوينية، بل يعمد إلى توظيف بعض أدواتها الإجرائية واستغلالها لبناء تصور نظري قائم أساسا على الانتقاء والتوفيق بين حساسيات منهجية عدة. وهذا ما صرح به الناقد في أكثر من موضع في كتابه؛ فالمنهج -بالنسبة إليه- «ليس نوعا من «الدوغم» المتيبس ولا هو بالقفص الحديدي الذي يطبق على النص ويخنق منه الأنفاس» [١١١] وأن «أية ممارسة منهجية تبقى في العمق، ضربا من الإبداع، أو ضربا من التحليل... إن المناهج لا تفتح كل الأبواب» [١١٢].

وإذا كان الناقد قد أعلن عن انفتاح ممارسته النقدية على حساسيات منهجية عدة، فإنه لا يذهب بعيدا في تحديد نوعية هذه المناهج، إذا استثنينا إشارته إلى التحليل البنيوي للسرد القصصي[١١٣].

بهذا يكون نجيب العوفي قد سلك هو الآخر مسلك التوفيق بين اتجاهات نقدية

Human Sciences Arabic11-n. Side 4/16/12 3:21 PM Page 218

الحواشي والمراجع

١- يمكن الرجوع إلى دراسة مهمة كتبها «غولدمان» حول أعمال جورج لوكاتش، وهي تحت عنوان : «مدخل إلى الكتابات الأولى لجورج لوكاتش»، وقد نشرت ضمن كتاب : «نظرية الرواية» . انظر :
L. Goldmann, Introduction aux premiers écrits de Luckacs, in G. Luckacs, théorie du roman, ed Gonthier, Paris, 1963

٢- جورج لوكاتش، دراسات في الواقعية الأوربية. ترجمة : أمير إسكندر. الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٧٢. ص : ١٢٥ .

٣- J. Lukacs, Balsac et le réalisme français, maspero,Paris, 1973, p: 20.

٤- L.Goldmann, L'esthétique du jeune lukasc, in marxisme et sciences humaines, Galimard, paris, 1970, p: 241

٥- L. Goldmann, le Dieu caché, Gallimard, paris 1979, p: 26

٦- L. Goldmann, Racine, L'arch, paris 1970

٧- L. Goldmann, Pour une sociologie du Roman, Gallimard, Paris, 1964

٨- L. Goldmann, la création culturelle dans la société modernes, éd Dénoel ,paris 1971

٩- L. Goldmann, Marxisme et sciences humaines, Gallimard, paris 1970

١٠- Lucien Goldmann, le dieu caché, p: 26

١١- L. Goldamann, Marxisme et sciences humaines, p: 63-64

١٢- Ibid

١٣- L. Goldmann, la création culturelle dans la société moderne, P: 12

١٤- L. Goldmann, conscience réelle et conscience possible, conscience adéquate et fausse conscience, in Marxisme et Sciences Humaines, P : 121

١٥- محمد برادة، أبعاد واقعية في رواية اليتيم، مجلة فصول، ع : ٢ ، يناير -فبراير- مارس- ١٩٨٥، ص : ١٧٧.

١٦- أشير إلى أن هناك أطروحة جامعية مهمة تناولت بالدراسة والتحليل النصوص النقدية التي كتبت في النقد المغربي الحديث من المنظور البنيوي التكويني. وقد نوقشت الأطروحة بكلية الآداب، جامعة عين شمس بمصر. وتوجد نسخة منها بجامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس. انظر : د. محمد خرماش، النقد الأدبي الحديث في المغرب وإشكالية المناهج (البنيوية التكوينية نموذجا)،

Human Sciences Arabic11-n. Side 4/16/12 3:21 PM Page 219

يمكن تبرير هذا التعامل مع مفاهيم البنيوية التكوينية -سواء من منطلق الإنقاء أو التركيب- رغبةً من هؤلاء النقاد في تحقيق ما يمكن أن نسميه «التأصيل النظري» للممارسة النقدية العربية. وذلك من خلال إعادة إنتاج مفاهيم البنيوية التكوينية بصورة تأخذ بعين الاعتبار خصوصية النصوص العربية المدروسة، وكذا خصوصية السياق الحضاري العربي.

- وتشكل دراسة حميد لحمداني بحق الاستثناء الذي حقق قدرا كبيرا من الفعالية المنهجية والإجرائية؛ وذلك من خلال محاولة استيعاب الجهاز المفهومي الأساس للبنيوية التكوينية (الرؤية للعالم، والفهم، والتفسير، والوعي الكائن والوعي الممكن). مع حرصه على تخليص الدراسة من الطابع التركيبي الذي شكل ثابتا من ثوابت الممارسة النقدية القائمة على المنهج البنيوي التكويني.

Human Sciences Arabic11-n. Side 4/16/12 3:21 PM Page 220

٣١- محمد برادة، مقدمة كتاب الرواية المغربية، ص : ٧.

٣٢- تتمثل في أربعة نماذج : جولة حول حنات البحر الأبيض المتوسط لعلي الداعوجي، برق الليل للبشير خريف، اللهاث الجريح لمحمد الصباغ، ومولد النسيان لمحمود المسعدي.

٣٣- عبد الكبير الخطيبي، الرواية المغربية، ص : ٩.

٣٤- سعيد علوش، الرواية والإيديولوجيا في المغرب العربي، دار الكلمة للنشر، الرباط ، ط ٢ : ١٩٨٣.

٣٥- المرجع نفسه، ص : ١٢.

٣٦- المرجع نفسه.

٣٧- L. Goldmann, la création culturelle dans la société moderne, p : 12

٣٨- سعيد علوش، الرواية والإيديولوجيا في المغرب العربي . ص : ١٥.

٣٩- المرجع نفسه، ص : ٣١.

٤٠- المرجع نفسه، ص : ٤٥ وما بعدها.

٤١- المرجع نفسه، ص : ٦١.

٤٢- المرجع نفسه، ص : ٦١.

٤٣- المرجع نفسه، ص :٦٦.

٤٤- يحيل هنا إلى السخرية عند «لوكاتش». المرجع نفسه، ص : ٦٧.

٤٥- L. Goldmann, consicence réelle et conscience possible, conscience adéquate et fausse conscience. In Marxisme et sciences humaines P . 121

٤٦- Ibid.

٤٧- سعيد علوش، الرواية والإيديولوجيا في المغرب العربي. ص : ٦١.

٤٨- المرجع نفسه ، ص : ١٢٨.

٤٩- محمد برادة، محمد مندور وتنظير النقد الأدبي، ص : ٢١.

٥٠- المرجع نفسه، ص : ٢١.

٥١- أعيد نشر مقال محمد برادة «الأسس النظرية للرواية المكتوبة بالعربية» ضمن كتاب : دراسات تحليلية لرواية «دفنا الماضي»، الرباط، ط١ : ١٩٨٠، ص : ٩٩.

٥٢- محمد برادة، الأسس النظرية للرواية المكتوبة بالعربية، ص : ٩٩.

٥٣- يقصد كتاب لوسيان غولدمان : Pour une sociologie du Roman

٥٤- محمد برادة، تشكيل وتشخيص الواقع- التاريخ في الريح الشتوية، مجلة آفاق، السلسلة الجديدة، دار النشر المغربية، العدد : ٤ ديسمبر ١٩٧٩، ص : ٤٧.

Human Sciences Arabic11-n. Side 4/16/12 3:21 PM Page 221

وأطروحة لنيل الدكتوراه، تحت إشراف : د. صلاح فضل، جامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس، تحت رقم ٤٧٤. وقد نشر الدكتور محمد خرماش قسما من الأطروحة بمجلة فصول. انظر : د. محمد خرماش، البنيوية التكوينية في الدراسات الأدبية في المغرب، مجلة فصول، العددان : ٣ و٤ - فبراير ١٩٩١. كما قدم ملخصا عن الأطروحة ب : مجلة فصول، العددان ٣ و ٤ - ديسمبر ١٩٨٩.

١٧- نشير هنا إلى الدراسات الآتية :

- محمد بنيس، ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب : مقاربة بنيوية تكوينية، دار العودة، بيروت، ١٩٧٩.
- عبد الله راجع، القصيدة المغربة المعاصرة : بنية الشهادة الاستشهاد، منشورات عيون، البيضاء، ط ١ : ١٩٨٧.

١٨- نشير على الخصوص إلى الدراسات الآتية:

- محمد برادة، محمد مندور وتنظير النقد الأدبي، دار الأدب، بيروت، ١٩٧٩.
- إدريس بلمليح، الرؤية البيانية عند الجاحظ، دار الثقافة، البيضاء، ط ١ : ١٩٨٤.

١٩- سيتم عرض هذه الدراسات لاحقا.

٢٠- عبد الكبير الخطيبي، الرواية المغربية، عدد : ٢، تر : محمد برادة، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط ١٩٧١.

٢١- المرجع نفسه، ص : ٣٤.

٢٢- المرجع نفسه، ص : ٧٥.

٢٣-المرجع نفسه، ص :١٦.

٢٤-المرجع نفسه، ص : ٣٤.

٢٥- Lucien Goldmannm pour une sociologie du Roman, P: 41-42

٢٦- عبد الكبير الخطيبي، الرواية المغربية، ص : ١٧.

٢٧- المرجع نفسه، ص : ١٧ .

٢٨- ليس هناك -في نظري- ما يحول دون استيعاب هذه «الخصوصية السياسية» ضمن مقولات البنيوية التكوينية إذا تم احترام المبادئ الإجرائية للمنهج. هذا مع التنبيه على أن الخطيبي لا يحيل هنا على أي كتاب من كتابات غولدمان.

٢٩- عبد الكبير الخطيبي، الرواية المغربية، ص : ١٦.

٣٠- المرجع نفسه، ص : ١٧.

- ترجمة غير مناسبة، لأنها قد تلتبس بـ«الموضوعي» (objectif)، الذي يقابله «الذاتي» (Subjectif)، لذلك فإن المصطلح الأنسب هو «الثيمي»، نسبة إلى «الثيمة».

Human Sciences Arabic11-n. Side 4/16/12 3:21 PM Page 222

٧٤- المرجع نفسه.

٧٥- يمكن التمييز في التجربة النقدية للدكتور حميد لحميداني بين ثلاث مراحل:

- مرحلة النقد الإيديولوجي المباشر: تتجلى من خلال بعض المقالات التي كان ينشرها في السنوات السبعين، يمكن الرجوع -على سبيل المثال- إلى المقالين الآتيين:
  الرواية المغربية والقضية الفلسطينية، مجلة أقلام، العدد : ١٠ ، أكتوبر ١٩٧٩. ص : ٨٩-١٠٩.
  الروائي والرواية المغربية، مجلة الزمن المغربي، العدد ٢، شتاء ١٩٨٠. ص : ٩٠، ٩٦.
- مرحلة النقد البنيوي التكويني : ويمثلها الكتاب الذي نحن بصدد تحليله، والكتاب في الأصل رسالة تقدم بها صاحبها؛ لنيل دبلوم الدراسات العليا من جامعة محمد بن عبد الله بفاس.
- مرحلة ما يمكن أن نسميه التحليل الإبستيمولوجي، في هذه المرحلة أصبح يهتم بنقد النقد، انطلاقا من مرجعيات نقدية مختلفة، ويمكن التمثيل لهذه المرحلة بأطروحته التي كانت تحت عنوان : النقد الروائي العربي بين النظرية والتطبيق .

٧٦- د.حميد لحميداني، النقد الروائي والإيديولوجيا ، ص : ٥٢.

٧٧- المرجع نفسه، ص : ٧٠.

٧٨- المرجع نفسه.

٧٩- حميد لحمداني، الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي. ص : ٩.

٨٠- المرجع نفسه، ص : ١٧.

٨١- المرجع نفسه، ص : ١١.

٨٢- المرجع نفسه، ص: ١٢.

٨٣- المرجع نفسه، ص : ١٢.

٨٤- المرجع نفسه، ص : ١٣.

٨٥- المرجع نفسه ، ص : ١١.

٨٦- المرجع نفسه، ص : ١٣.

٨٧- المرجع نفسه، ص : ١٤.

٨٨- المرجع نفسه، ص : ١٤.

٨٩- المرجع نفسه، ص : ١٥.

٩٠- المرجع نفسه، ص : ١٥.

٩١- بيير زيما، النقد الاجتماعي، ترجمة : عايدة لطفي، مراجعة : د. أمينة رشيد، وسيد بحراوي، دار الفكر للدراسة والنشر والتوزيع، بيروت، ط ١ : ١٩٩١، ص : ٨٨،٨٩.

Human Sciences Arabic11-n. Side 4/16/12 3:21 PM Page 223

٥٥- المرجع نفسه، ص : ٥١.

٥٦- نشرت المقالة ضمن كتاب : الرواية العربية (واقع وآفاق)، دار ابن رشد، بيروت، ط١ : ١٩٨١، ص : ١٢٩.

٥٧- المرجع نفسه، الصفحات من : ١٢٩ إلى ١٣٤.

٥٨- محمد برادة، الرؤية للعالم في ثلاثة نماذج روائية، ص : ١٣٠.

- لعل في العبارة خطأ مطبعيا، والصحيح هو «الباتوس»؛ أي الكلام المؤثر والمهيج.

٥٩- المرجع نفسه، ص : ١٣٧.

٦٠- المرجع نفسه ، ص : ١٣٩.

٦١- المرجع نفسه، ص : ١٤١.

٦٢- المرجع نفسه، ص : ١٥١.

٦٣- المرجع نفسه ، ص : ١٤٤.

٦٤- المرجع نفسه، ص : ١٣٠.

٦٥- والجدير بالذكر أن هذه الدراسة كان قد شارك بها «محمد برادة» في ملتقى الرواية العربية، وصدرت ضمن مجموع الأبحاث التي قدمت في هذا الملتقى سنة ١٩٨١، لكن الدراسة سبق نشرها أيضا بمجلة الآداب، العدد : ٢ و ٣- س : ٢٨ فبراير - مارس ١٩٨٠.

٦٦- محمد برادة، الرؤية للعالم في ثلاثة نماذج روائية، ص : ١٤٥.

٦٧- نشير هنا -على الخصوص- إلى كتابه «أسئلة الرواية، أسئلة النقد» مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، ط١ : ١٩٩٦.

٦٨- حميد لحمداني، الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي. دراسة بنيوية تكوينية، دار الثقافة، البيضاء، ط١، ١٩٨٥.

٦٩- د. حميد لحمداني، النقد الروائي والإيديولوجيا، المركز الثقافي العربي، البيضاء، ط١ : ١٩٩١، ص : ١١٨ (على الهامش).

٧٠- حميد لحمداني، الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي، ص : ٩.

٧١- L. Goldmann. Le dieu caché. P : 26

٧٢- للمزيد من التفاصيل حول هذه النقطة يمكن الرجوع إلى :

L. Goldmann, le sujet de la création culturelle, In Marxisme et sciences humaines. P : 94 FF

٧٣- حميد لحمداني، الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي، ص : ١٤.

Human Sciences Arabic11-n. Side 4/16/12 3:21 PM Page 224

١٠٩- المرجع نفسه، ص : ١٤،١٥.

١١٠- المرجع نفسه، ص : ١٢.

١١١- المرجع نفسه، ص : ١٤.

١١٢- المرجع نفسه، ص : ١٥.

١١٣- المرجع نفسه، ص : ١٤.

١١٤- L. Goldmann, Structure mentale et création culturelle, p: 341-342

Human Sciences Arabic11-n. Side 4/16/12 3:21 PM Page 225

٩٢- حميد لحمداني، الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي. ص : ١٦.

٩٣- المرجع نفسه، ص : ١٦.

٩٤- المرجع نفسه، من ص : ٧٧ إلى ص ١٠١.

٩٥- Goldmann, Marxisme et Sciences Humaines, P: 64.

٩٦- حميد لحمداني، الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي، ص : ١٧.

٩٧- المرجع نفسه، ص : ١٧ وما بعدها.

٩٨- المرجع نفسه، ص :٣٦.

×× بل إن مفهوم «رؤية الواقع» الذي يشكل حجر الزاوية في الدراسة، (لذلك) قد ورد في دراسات نقدية عربية عديدة، فقد استعمل هذا المفهوم كل من الدكتور عبد المحسن طه بدر في كتابيه : الرؤية والأداة (نجيب محفوظ) و «الروائي والأرض»، والدكتور أحمد إبراهيم الهواري وقاسم عبده قاسم في كتابهما «الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث» ٩٩. والدكتور طه وادي في كتابه «صورة المرأة في الرواية العربية» ...إلخ ومن غير المستبعد أن يكون الناقد قد استلهم المصطلح المذكور من الدراسات النقدية السابقة، خاصة وأن هذه الدراسات تندرج جميعا ضمن التحليل الاجتماعي للرواية. انظر :

٩٩- نجيب العوفي، مقاربة الواقع في القصة القصيرة المغربية، المركز الثقافي العربي، البيضاء ١٩٨٩، ط ١ : ١٩٨٧.

١٠٠- نجيب العوفي، ظواهر نصية، نشر عيون المقالات، البيضاء، ط ١ : ١٩٩٢.

١٠١ - نجيب العوفي، مقاربة الواقع في القصة القصيرة المغربية، المركز الثقافي العربي، البيضاء، ط١: ١٩٨٧، ص : ١١.

١٠٢- المرجع نفسه.

١٠٣- نقلا عن خلدون الشمعة، المنهج والمصطلح، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق ١٩٧٩ ص : ٢٠١.

١٠٤- نجيب العوفي، مقاربة الواقع في القصة القصيرة المغربية، ص : ١٣.

١٠٥- المرجع نفسه، ص : ١٣.

١٠٦- د. حميد لحمداني، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي. المركز الثقافي العربي، البيضاء، ط١ : ١٩٩١.

١٠٧- نجيب العوفي، مقاربة الواقع في القصة القصيرة المغربية. ص : ١٤.

١٠٨- المرجع نفسه، ص : ١٤ .